الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (11):

سمح للاعلام السعودي بمتابعة اخبار بن لادن.. شرط ان لا يشير الى جنسيته السعودية المسحوبة منه

الزرقاوي يعتبر كل النظام العالمي طاغوتا.. والانظمة العربية كافرة تجب محاربتها وقلبها بالقوة

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقداله وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك. وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

سعودي ولكن..

أما الصحافة السعودية في الخارج التي لا يمكن أن تتجاهل الشيخ أسامة بن لادن، فقد سمح لها بذكر الشيخ أسامة بن لادن بشرط أن لا يوصف بأنه سعودي.

الطالبان من جهتهم شعروا بعد الانفجار الأول وقبل الضربة الأمريكية بحرج شديد ولكن الأمريكان أنقذوهم من الحرج من خلال الضربة الغبية، خاصة وأن الضربتين تزامنتا مع دخول الأفغان العرب الذين يتبع معظمهم الشيخ أسامة مع الطالبان في معركتهم ضد دوستم في شمال أفغانستان، وكان لهم دور كبير في القضاء الكامل على دوستم بعد أن كان الهجوم الأول من قبل الطالبان وحدهم غير موفق. وخلال تلك الفترة حاول الأمريكان مرة أخرى التفاوض مع طالبان حول الشيخ أسامة بن لادن، ورفض الملا عمر التفاوض معهم، وعندها اكتفوا بارسال رسالة للملا عمر يشرحون فيها مطالبهم، وهو حرص الولايات المتحدة على أمنها وأمن مواطنيها وأن ذلك هو سبب حديثهم مع طالبان، واكتفى ملا عمر بالرد عليهم بأنهم ان كانوا جادين في طلب الأمن لأنفسهم فليخرجوا من العالم الاسلامي وخاصة جزيرة العرب.

كان بامكان أمريكا أن تحاصر الشيخ أسامة بن لادن والجماعات الجهادية لو لجأت الى الصبر والتحمل وتضخيم صورة الأبرياء الذين قتلوا في انفجاري كينيا وتنزانيا ولا سيما المسلمون منهم، واظهار الشيخ أسامة بن لادن الجهاديين على شكل متعطشين للدماء نشاز بين المسلمين أنفسهم لا يهمهم حتى قتل أبناء جلدتهم من أبرياء المسلمين. ولربما كانت هناك لدى الأمريكان فرصة للاستفادة القصوى من المؤسسات الدينية في مصر والسعودية لتشويه صورة هذه الجماعات من خلال ربطها بقتل العشرات من المسلمين الأبرياء، فقط لأجل قتل بضعة أمريكان، واظهار تلك الجماعات كآخر من يلتزم الشرع. ولو صبر الأمريكان وتحملوا وقع الضربة ومضوا في ذلك الاتجاه لأصبح الشيخ أسامة بن لادن والجماعات الجهادية في وضع حرج مع الشعوب ومع الطالبان، لأن ذلك العمل الذي يستطيع الأمريكان التشكيك في شرعيته اسلاميا من خلال المؤسسات المذكورة يقضي على جزء كبير من شعبية تلك الجماعات، ويظهر أمريكا على أنها مظلومة ومتحامل عليها بغير وجه حق. لكن الذي حصل أن هذا الخيار قد حرم منه الأمريكان الى درجة لا يمكنهم التراجع فيه، أو استعادته لأنهم مضوا بعيدا في تضخيم رد الفعل وتضخيم حجم الشيخ أسامة بن لادن واثبات أنه أوجعهم وآذاهم.

ما فعلته واشنطن تجاه بن لادن، هو ذات الذي فعلته مع الزرقاوي من خلال تضخيم صورته في الاعلام بدءا من كلمة كولن باول وزير الخارجية الأمريكي في مجلس الأمن في شهر شباط (فبراير) عام 2003، وليس انتهاء في نسبة كل أعمال المقاومة في العراق الى الزرقاوي، مما عظم صورة البطل المنقذ الذي تنتظره جموع الجماهير العربية والاسلامية الباحثة عن منقذ يخرجها من هذه الهزائم المتوالية والاذلال الأمريكي لشعوب المنطقة بشكل متواصل.

في الأسابيع التي تلت حادثتي التفجير والرد الأمريكي، شرعت أمريكا في حملة اعتقالات لبعض العرب والمسلمين بحجة علاقتهم بالشيخ أسامة بن لادن. وكانت طريقة الاعلان التي صارت تستخدمها أمريكا تشبه طريقة بعض الدول العربية، التي ما ان تعتقل أو تقتل «أمير جماعة» حتى يظهر «أمير جماعة» آخر وتعتقله أو تقتله، ويتبين أن الأمراء في تلك الجماعات أكثر من الأفراد!!. هذا هو الأسلوب الذي استخدمته أمريكا في تحسين صورتها في تتبع شبكة الشيخ أسامة بن لادن المزعومة، فكل يوم يظهر علينا سكرتير خاص، ومدير أعمال، و«شخصية مركزية» في عمليات الشيخ أسامة بن لادن. وقد استثمرت الحكومة الأمريكية جهل الشعب الأمريكي بتفاصيل المنطقة وما يدور فيها، وضخمت القضية من أجل التعويض عن عجزها في حرب «الارهاب» ومتابعة الشيخ أسامة... الشيء نفسه يحدث الآن في العراق، فعلى مدى النصف الأول من عام 2005 أعلنت السلطات الأمريكية في العراق أو الحكومة المنصبة من قبلها عن اعتقال العشرات من أمراء تنظيم القاعدة في العراق، ومساعدين للزرقاوي، حتى بات عدد هؤلاء القادة الملقى القبض عليهم أكثر من عدد أفراد الجماعات المعتقلين!!

أما الشيخ أسامة نفسه فقد بقي تلك الفترة تحت حماية الطالبان خوفا من عملية اغتيال أو خطف مفاجئة، وقد نفى الناطق الرسمي باسم الحركة وقتها اشاعة أن يكون الشيخ أسامة بن لادن تحت الاقامة الجبرية، وأكد أنه يتمتع بحرية التنقل في كافة أنحاء أفغانستان.

السعودية وطالبان

لم تتوقف محاولات الحكومة السعودية في الضغط على طالبان بتسليم الشيخ أسامة بن لادن، ومن أجل ذلك لجأت الحكومة السعودية الى آخر سهم في كنانتها، وهو ارسال أكثر الأمراء السعوديين خبرة بأفغانستان تركي الفيصل. توجه تركي الفيصل بصحبة عبد الله التركي وزير الشؤون الاسلامية وسلمان العمري القائم بالأعمال السعودي في كابل الى قندهار، التقى هذا الوفد الملا عمر وطلب تسليم الشيخ أسامة لأمريكا، ودارت بين الوفد السعودي وبين الطالبان ملاسنة حادة، قال فيها الملا عمر أنهم اذا كانوا يتحدثون باسم أمريكا فلا يلومونه اذا قال انه يتحدث باسم الشيخ أسامة بن لادن. وكانت عبارة ملا عمر هذه من باب الاحراج للوفد الذي طلب تسليم الشيخ أسامة لأمريكا، والا فانه لم يكن موافقا مع الشيخ أسامة بن لادن في توجهاته الأخيرة. وفي اللقاء ادعى تركي الفيصل أنه قدم بناء على طلب من الملا عمر من أجل استلام الشيخ أسامة بن لادن، فأنكر ملا عمر وجود هذا الوعد، بل انتقد شرعية مثل هذا الطلب أصلا، فاشتد النقاش بين الطرفين الى درجة أن الملا عمر وجه كلاما خشنا للوفد السعودي، تردد المترجم في ترجمته، فنهره الملا عمر وأصر على ترجمته حرفيا. وقبل أن ينصرف تركي الفيصل طلب منه الملا عمر أن يصطحب معه القائم بالأعمال السعودي في كابول واصفا اياه بأقذع الصفات! وبعد عودة تركي الفيصل الى الرياض أرسل اعتذارا للملا عمر، فرفض الملا عمر الاعتذار ورفض اعادة القائم بالأعمال السعودي الى كابول، فقرر السعوديون ابعاد القائم بالأعمال الأفغاني في الرياض.

في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) من نفس العام قررت الحكومة السعودية طرد ممثل طالبان دون تبرير رسمي، ولكن هذه الأسباب تبينت فيما بعد من خلال الطالبان أنفسهم، وهو رفضهم كل المطالب السعودية بتسليم الشيخ أسامة بن لادن أو تحجيم نشاطه أو تسليم غيره من «الأفغان العرب» الموجودين عند طالبان.

لم يكن قرار الحكومة السعودية طرد ممثل طالبان غريبا بقدر ما كان اعترافهم السريع بطالبان مثيرا. ولربما كان الاعتراف الأول بالطالبان قائما على تقديرات خاطئة مفادها أن هذا الكيان الجديد يجب أن يُحتضن في النظام العالمي الجديد ويدخل كنف أمريكا، وليس هناك أفضل من السعودية لادخاله بسبب ثقلها الروحي في العالم الاسلامي، وبسبب خبرتها ونفوذها في الجهاد الأفغاني في السابق. ولقد قررت الحكومة السعودية التعامل مع الطالبان بطريقة هي نسخة عن التعامل مع زعماء الأحزاب السابقين، اعتقادا منهم أن الطالبان أفغان مثل الأحزاب السابقة، والأسلوب الذي نجح مع الأحزاب سينجح معهم. ولذلك حاول حكام المملكة تجاهل قضية الشيخ أسامة بن لادن في البداية وتبرعوا بلا مقابل بالاعتراف، كتفضل على الأفغان الذين سيحرصون على رد هذا الفضل «الكبير». ولقد تجاوزت الحكومة السعودية تلك الخطوة الى دعوة زعماء الطالبان للحج والعمرة كضيوف رسميين على الدولة السعودية، وعرض على عدد من قياداييهم بعض المغريات التي تستهوي البشر، كما حاولت الحكومة السعودية استخدام النفوذ الديني بارسال بعض العلماء أو رسائل من المشايخ للتأثير على مواقف طالبان. وكان كل أمل الحكومة السعودية أن يقبل الطالبان التعامل مع بقية العالم على أساس «باكستاني ـ سعودي»، أو على الأقل يقبلون بالمطالب الدنيا للحكومة السعودية بتسليم أو تحجيم الشيخ أسامة بن لادن. أيا من ذلك لم يتحقق رغم تكرار المحاولات السعودية، لم ينقطع الأمل عند الحكومة السعودية وحاولوا التأثير من خلال بعض الشخصيات التي اعتبروها أجنحة مرنة في الطالبان، لكن كانت النتيجة سلبية. ولذلك فقد تورط السعوديون فلا هم الذين احتووا طالبان ولا هم الذين سلموا من تهمة التعاون أو التعامل معهم بعد مواجهتهم لأمريكا، وكان لا بد من التخلص من هذه التهمة بعد أن أصبحت العلاقة مع الطالبان عديمة الجدوى، فكان قرار الطرد، وعلى الأرجح فان التوقيت كانت له علاقة بزيارة الأمير عبد الله لواشنطن، حيث صدر القرار قبل وصول الأمير عبد الله لواشنطن بيوم واحد، وكان القرار بمثابة تبرئة لساحة الحكومة السعودية من العلاقة مع طالبان الذين يؤوون العدو الأول لأمريكا: الشيخ أسامة بن لادن، ولم يكن من اللائق أن يحل الأمير عبد الله ضيفا على الأمريكان، بينما تبقى بلاده راضية عن طالبان مصدر «الارهاب».

الدفاع عن كابل

في الوقت الذي كانت فيه السعودية تضغط لتسليم بن لادن الى واشنطن، تمكن «الأفغان العرب» بقيادة بن لادن من حماية احدى جبهات كابل أمام أحمد شاه مسعود، عند انشغال الطالبان بجبهات باميان حيث الشيعة، والشمال حيث دوستم، أدى الى تقوية موقفهم عند الطالبان. وكان أحمد شاه مسعود الذي يعتبر قائدا ميدانيا محنكا قد لعب لعبة عسكرية ناجحة في استثمار خلو الجبهة من جنود طالبان. المجاهدون العرب كانوا خفيفي الحركة وكان لهم تجمع قريب من شمال كابل حيث الجبهة المواجهة لأحمد شاه مسعود. ولقد كان بلاء العرب في تلك المعركة لا يكاد يصدق، حيث صمد في وجه مسعود ومنعه من دخول كابل حوالي خمسين من العرب فقط، ولعل المتابعين للشأن الأفغاني لاحظوا أن مسعود منذ ذلك الحين بدأ يطلق التصريحات ضد الشيخ أسامة بن لادن بينما كان يتجاهله في الماضي. وحصل تطور آخر على مستوى المجاهدين العرب هو انضمام جنسيات أخرى غير عربية من الباكستانيين وبنغلاديش وطاجيكستان وأوزبكستان ودول أخرى، ومعظمهم أو كلهم تقريبا يشعر بتبعية للشيخ أسامة ابن لادن.

فاجأ نظام طالبان العالم باعدام شخص محسوب على السعودية، جاء مكلفا من أحد الأمراء ـ كما تقول مصادر طالبان ـ لقتل الشيخ أسامة بن لادن. قبضت طالبان بالتعاون مع مجموعة الشيخ أسامة بن لادن على عدد من المرتزقة بينهم أشخاص سعوديون يخططون لعمليات تخريب في أفغانستان، ويخططون كذلك لاغتيال الشيخ أسامة بن لادن حسب رواية الطالبان. ومن بين المعتقلين أفغان وباكستانيون وعرب اضافة الى سعوديين، وأعلنت طالبان بعد التحقيق معهم أنهم أرسلوا من قبل مدير الامن السعودي الذي يحمل ملف أفغانستان وباكستان.

رغم فشل زيارة تركي الفيصل الى كابول، لم ييأس السعوديون، وقرروا استخدام وسيلة أخرى ليس لها علاقة بالطالبان، وهي الضغط مباشرة على الشيخ أسامة بن لادن. كانت والدة الشيخ أسامة بن لادن ممنوعة من السفر وحرمت من زيارته عندما كان في السودان، وكانت الحكومة السعودية تعلم أنه في أشد الشوق اليها، فعمدت الى ترتيب زيارة خاصة لوالدته بطائرة خاصة تقلها الى قندهار، من أجل الضغط عليه وابتزازه بها. وفعلا نقلت والدة الشيخ أسامة مع زوجها الذي كان من عائلة العطاس، وصلت الأم وقابل الشيخ أسامة والدته فعلا بعد فراق دام سنين، ولا غرابة أن كان اللقاء عاطفيا رقيقا، لكن الشيخ أسامة بن لادن كان واضحا تماما أن قضاياه ليست مطروحة للنقاش رغم الابتزاز. وعادت الوالدة المكلومة بعد أن كحلت عينها برؤية ابنها الشيخ أسامة لكن لم تحقق لمن أرسلها مع زوجها أي مطلب.

احراج طالبان

ظهر الشيخ أسامة بن لادن مرة أخرى فجأة في بداية عام 1999 في بعض الصحف الأمريكية ومحطتي تلفاز، مما تسبب في اعادة الحرج على الطالبان. وكانت أجوبة وتعليقات الشيخ أسامة بن لادن تدل على أن لا تغيير في الموقف. بعد ذلك وبعد أن يأس الأمريكان والسعوديون من استجابة الطالبان للضغوط الدبلوماسية تقرر استخدام كل الوسائل الممكنة، مما حدا بالطالبان الى اتخاذ قرار بعزل الشيخ أسامة بن لادن عن العالم وذلك لتحقيق هدفين :الأول حمايته. والثاني منعه من ادخالهم في حرج جديد هم في غنى عنه، خاصة أنهم غير متفقين مع الشيخ أسامة بن لادن بخصوص الفتوى الأخيرة. وبقي الشيخ أسامة معزولا. وخلال هذه الفترة ترددت أنباء عن مغادرته أفغانستان، لكنها لم تثبت.

قررت أمريكا استثمار نفوذها على مجلس الأمن لفرض حصار على طالبان، الى أن تسلم أسامة بن لادن. وأجاز مجلس الأمن القرار لكن دون جدوى. وبقي الشيخ أسامة بن لادن في مكان خاص لحمايته مع عدد لا بأس به من العرب، ولم يحصل تطور ذو بال يغير وضعه.

وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فما كان من الملا عمر وطالبان الا الرفض المطلق لتسليم بن لادن، فكان الاجتياح الأمريكي، واحتلال كابل، ودخول الصراع بين واشنطن وبن لادن مرحلة جديدة، ساحتها هذه المرة خروجهم من أفغانستان، العالم بأسره. رأس رمح القاعدة في هذه المرحلة، الزرقاوي.

الزرقاوي من أين الى أين

الانسان هو الذي يطبع الزمان والمكان بطابعه الخاص، هذه المقولة تعتبر نظرية مهمة وضرورية لتفسير أحداث التاريخ الماضية وهي ضرورية كذلك لمن أراد استشراف المستقبل والتنبؤ بأحداثه.

وانطلاقاً من هذا الفهم فان الذين يريدون استشراف الأحداث العالمية المقبلة لا بد لهم أن يتعرفوا جيداً على شخصية أبو مصعب الزرقاوي، فلقد أصبح أبو مصعب من الأشخاص الذين لهم بصماتهم الخاصة على الأحداث التي تدور في منطقة مهمة من مناطق هذا العالم وهي العراق، ومن المتوقع أن يمتد تأثير أبو مصعب الى مناطق أخرى قريبة من العراق في غضون الثلاث سنوات القادمة.

الدين الاسلامي عند الزرقاوي ليس طقوساً وعبادات فحسب، بل هو منهاج وأسلوب وطريقة للحياة، تحدد علاقة الانسان ابتداءً بنفسه ثم بخالقه وصولاً الى علاقته بالأفراد والمجتمع الذي يعيش فيه، وينطلق من ذلك الى الدائرة الأوسع، ليحدد علاقة مجتمعه المسلم بباقي المجتمعات التي تحيط به. كل هذا يتحدد في نظر أبو مصعب من خلال فهم للاسلام يركز على الاعتماد الكامل على العقيدة الاسلامية الصحيحة متعاملاً معها كما تعامل السلف الصالح من علماء الأمة ومجاهديها الأفذاذ ممن يثبت صلاحهم واخلاصهم لهذه الأمة ولهذا الدين.

وبناءً على هذا الفهم واعتماداً عليه، ينطلق أبو مصعب الى فهم الواقع الذي يعيشه هذا العالم، ويصل الى نتيجة مفادها أن الواقع في هذا العالم قاطبة واقع غير سليم وهو أمر ينكره الشرع ولا يوافق الدين الذي يؤمن به، ولا يوافق الشرع في اعتداء البشر على أهم خصائص الألوهية وهي الحاكمية، فالأصل في الحاكمية على الأرض أن تكون لله سبحانه وتعالى، فالله جل وعلا هو الذي أوجد هذا الكون من العدم وهو الذي خلق الانسان وارتضى له الدين الذي ينبغي له أن يسير عليه حتى يتسنى له النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وأي انحراف للانسان عن طريق الدين ستكون النتيجة هي الفشل في تحقيق حياة كريمة لهذا الانسان في الدنيا وخسارة له وفشل كبير في الآخرة.

يعتقد أبو مصعب أن عمر الانسان الممنوح له من الله سبحانه وتعالى، هو زمن الامتحان الممنوح له في هذه الدنيا، والأعمار قصيرة. ويعتقد أبو مصعب أنه من الظلم للانسان أن لا يعيش حياته في ظل هذا الدين. اذا، هذا الواقع في حال استمراره لن يكون ـــ وفق معتقداته ـــ في صالح الانسانية، والعاقل لا يرضى بذلك ولا يقبله. المنطق يقول أن الشخصيات القلقة غير الراضية عن واقعها، هي التي تسعى دوماً للتغير، وهذا يوافق حكماً شرعياً يأخذ به أبو مصعب، يستند الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم المنكر فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان».

أما شخصية أبو مصعب فهي لا تتفق بمجمل تكوينها الا مع التغيير باليد، فأبو مصعب وحسب ما عرفناه، انسان عربي بدوي، والبدوي حر بطبعه، والحر لا يقبل الضيم والذل لنفسه وأهله ولا حتى للمستضعفين من البشر.

شب أبو مصعب في مدينة الزرقاء وترعرع فيها، مدينة الزرقاء مدينة متجانسة اجتماعياً وثقافياً، وهي مثال مصغر ـــ لكنه حيّ ومتكامل ـــ لواقع الأمة العربية والاسلامية، ومعظم ساكني هذه المدينة من الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وقهراً وجوراً، اذاً انسان هذه المدينة على المجمل مقهور مظلوم مسلوب الحق مخدوع متآمر عليه، يعيش حياة أقرب الى البؤس منها الى الحياة الحرة الكريمة الواعدة. الأفق مسدود، والخيارات معدومة، النفوس أبية شماء تتطلع الى الانعتاق من كل هذا.

طريق «الزعران»

كانت محاولة أبو مصعب الأولى للانعتاق، هي ممارسة طرق الفتوة التي تسمى بالعامية بالزعرنة. البداية كانت منطقية ومبررة، وخصوصاً ان الفتوة في المصطلح العربي تعني الرجولة والكرم والشجاعة ونصرة المظلوم والانتصار للحق مهما كانت النتائج، ودليلنا على أن أبو مصعب كان يقصد الانعتاق منذ البداية هو انه كان يبحث عن الحقيقة وكان مخلصاً في هذا البحث، لأن محطة الفتوة هذه لم تكن طويلة في حياته فكانت أقل من سنتين، اكتسب فيهما صفات كانت لها أهمية في تكوين شخصيته، فمن صفات الفتوة في بلادنا: الرجولة، الصلابة، المغامرة، افتداء الرفاق والدفاع عنهم، الطيبة والشفافية.

هذه المرحلة اكسبت أبو مصعب أهم الصفات التي يتمتع بها حاليا، مرحلة الفتوة لم تطل، اذ كان من خلال القلق الدائم في شخصيته، يبحث عن الحق والحقيقة، ولم يطل به الأمر، فقد هداه الله الى الاسلام الذي ينتشر دعاته في كل أرجاء هذه المدينة، هداية أبو مصعب لم تأت من خلال دعاة تقليديين، وانما كانت على يد رجال يحملون فكر الجهاد الذي يهدف الى التغيير في واقع الأمة، وهؤلاء الرجال يفهمون الجهاد على أنه بذل النفس والجهد والمال لازالة كل العقبات والحواجز والطواغيت الأرضية والمادية التي تقف في وجه الدعوة الاسلامية التي تسعى لاخراج الناس من عبودية العباد الى عبودية رب العباد، الجهاد عندهم هو للدفاع عن أرض الأمة وحرماتها وأعراضها وكرامتها وثرواتها وحريتها. كان هذا هو قدر أبو مصعب. لم يكن أبو مصعب ليدخل الاسلام الا من خلال هذا الفهم، فهو الأقرب الى شخصيته وتكوينه. حملة هذا الفكر كانوا يدعون الشباب المسلم الى الالتحاق بساحات الجهاد المفتوحة الساخنة، وكانت أفغانستان هي الساحة الوحيدة المتوفرة. هؤلاء الدعاة كانوا وما زالوا يعتقدون أن ساحات الجهاد عبارة عن مدرسة شاملة لاعداد الشباب المسلم القادر على التغيير في واقع الأمة وواقع البشرية، ففي ساحات الجهاد تتوفر بيئة ومناخ لا يمكن أن يتوفرا في واقع هذه الأنظمة المتناقضة مع مضمون الآلام نصاً وروحاً، ففي ساحات الجهاد لا يوجد الا الرجال الأحرار المؤمنون صدقاً، ودليل صدقهم هو تركهم لأموالهم، وزوجاتهم وأبنائهم وأوطانهم وأمنهم الشخصي والتحاقهم بميادين الوغى الصعبة الباردة الكثيرة المخاطر، فاختلاطك بالرجال شيئاً فشيئاً يكسبك صفاتهم، هؤلاء الرجال في هذه المناطق أحرار غير مقيدين يتكلمون ويفصحون عن كل ما يؤمنون به دون حواجز أو عقبات مادية أو معنوية، اضافة الى أن هؤلاء الرجال يمثلون بيئات ومجتمعات متعددة تمثل العالم كله، اذاً خروج الشباب الى ساحات الجهاد يكسبهم أفكارا جريئة دائمة التجدد والتوسع ويتيح لهم التطبيق العملي لكل ما يتعلمونه نظرياً، هؤلاء الأشخاص هم أكثر البشر صدقاً ووعياً وتضحية، فالصدق مع النفس يدفعك للبحث عن الحقيقة، والبحث عن الحقيقة يوصلك الى الوعي، وقمة الوعي هي التضحية في سبيل الوصول الى ما تؤمن به. هذه البيئة توفرت لأبو مصعب منذ البداية، واكسبته الكثير الكثير الذي ما كان ليتوفر له لو بقي في الأردن وفي الزرقاء.

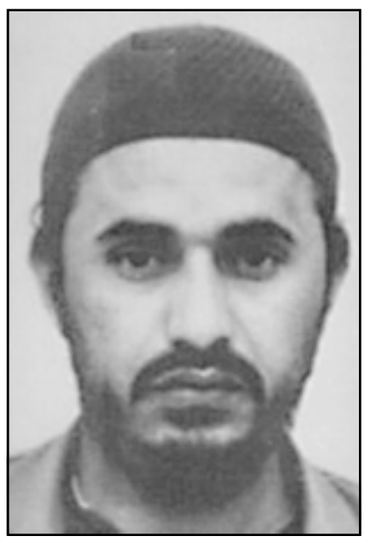

ابو مصعب الزرقاوي

التوحيد والطاغوت

كانت الفكرة أن يأتي الشباب المسلمون الى ساحات الجهاد فيتعلمون الاسلام الصحيح النقي غير المشوه بفتاوى وآراء وعاظ الملوك والسلاطين، ليعودوا الى أوطانهم الأصلية فيما بعد، ليقوموا بعملية التبشير والدعوة للدين السليم. محطة أفغانستان هذه وفرت لأبو مصعب سنتين من الزمن كانتا كفيلتين بايصاله الى الحقيقة.

الحقيقة التي توصل لها أبو مصعب تقول أن البشرية قد ابتعدت بتصوراتها ونظمها عن عقيدة التوحيد، توحيد الله سبحانه وتعالى في ألوهيته وربوبيته، وان هذا الابتعاد هو السبب الحقيقي والرئيس لكل المشاكل التي تعاني منها البشرية قاطبة، فالنظام السائد في العالم يسند عبودية البشر للبشر، وهذا يتناقض مع عقيدة التوحيد التي يؤمن بها الزرقاوي، وهذا النظام هو الذي ينتج الظلم والعبودية والهيمنة ونهب الثروات واغتصاب الأوطان، وأنه لا مخرج من كل هذا ولا تغيير له الا بالعودة الى فهم عقيدة التوحيد القائمة على فهم لا اله الا الله فهماً سليماً، يمنح معتنقيه تصوراً كاملاً شاملاً لما ينبغي أن تكون عليه حياة البشرية جمعاء.

هذا التصور الذي يقوم على مبادئ وأفكار وقيم تنتج عن هذا الفهم، تجعل من الفرد عبداً لله وحده، يطيعه في كل ما يأمره به وينتهي عن كل ما ينهاه عنه، لا يظلم ولا يعتدي ولا ينهب ولا يستعبد غيره من البشر، هذا كان فهم أبو مصعب لعقيدة التوحيد، والمنطق يقول أن كل من يفهم ويؤمن بهذه العقيدة ايمانا صادقاً لا بد له أن يبذل قصارى جهده باتجاه أحداث التغير الذي يتلاءم مع هذا الفهم للعقيدة، اضافة الى أن الله سبحانه وتعالى يقول «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام، ذلك الدين القيم» والتفسير يقول انه لا بد للمؤمن أن يكفر بالطاغوت ابتداءً ولا بد للمؤمنين من محاربة الطاغوت أيا كان شكله أو مضمونه، وانطلاقاً من هذا الفهم فان أبو مصعب يعتبر الأنظمة التي لا تحكم بشرعة الله كافرة، وهي بأنظمتها وتشريعاتها وشخوصها تعتبر طاغوتاً، يجب رده وحربه من اجل القضاء عليه وتغييره، كذلك يعتبر كل النظام العالمي القائم على مبادئ وأسس تخالف شرع الله طاغوتاً يجب محاربته والقضاء عليه أيضا، هذا النظام الذي أنتج هذا الظلم الصارخ وهذا الفسق الفاضح وهذه الهيمنة الغاشمة من قبل الأقوياء على المستضعفين في الأرض الذين لا حول ولا قوة لهم في دفع هذا العدوان الكبير.

اذا أبو مصعب أصبح يعتقد أن نشر التوحيد والدعوة له، هو طريق المسلمين والمستضعفين في الأرض جميعاً، لأن التوحيد هو الذي سوف يخرجهم من كل هذا الانحطاط والتخلف والضعف ويجعلهم قوة لا يستهان بها، ستصبح قادرة على احقاق الحق ودفع الباطل ورفع الظلم ومقاومة الظلم ومقاومة التغول الذي تمارسه القوى والدول الكبرى الخارجة على كل الأعراف، وهذه النظرية التي يدعو لها أبو مصعب تستند الى وعد رباني، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين».

هذا التفكير دفع أبو مصعب ومجموعة من الشباب الذين كانوا قد خرجوا للجهاد في أفغانستان للعودة الى الأردن بعيد الهزيمة التي ألحقت بالسوفييت، وهم مقتنعون ان هذا الفكر وهذه العقيدة التي استطاعت أن تهزم هؤلاء السوفييت، لقادرة على احداث التغير المنشود.

خبرات أبو مصعب ورفاقه لم تكن واسعة، لا في مجال الدعوة ولا في مجال العمل التنظيمي الحركي. لذلك نجدهم يرتكبون أخطاء بسيطة جعلتهم عرضة لملاحقة الأجهزة الأمنية في الأردن، وهذا أنتج تهذيباً لشخوصهم وصقلاً لمهاراتهم وزيادة في علمهم ومعارفهم، حيث حفظوا القرآن الكريم، وفهموا عقيدة التوحيد على أصولها، وكانت هذه بعض خيرات ومنافع السجن الذي قضى فيه أبو مصعب ورفاقه قرابة الخمس سنوات، ليخرجوا من السجن وهم أكثر واقعية وأكثر تصميماً على المضي قدماً على طريق التغير، فالسجون لا تزيد أصحاب العقائد والأفكار الا ايمانا وتصميماً على الاستمرار وعدم النكوص.

اصبح أبو مصعب بعد هذه التجربة يفكر بعقلية القائد المسؤول صاحب المسؤولية الكبيرة، أسست للمرحلة التالية من حياة أبو مصعب، وهي فترة الثلاث سنوات الأخيرة من 2002 ـ 2005 بكل أبعادها وملامحها الخاصة والعامة.

اذا نحن أصبحنا الان نتعامل مع شخصية قائد فذ كان أول من بادر الى مقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق، فقد بادر للاشتباك مع الأمريكان عندما وصلت القوات الأمريكية الى المنطقة التي كان يتواجد بها أبو مصعب على الأطراف الغربية الشمالية لبغداد، حيث كان برفقته مجموعة من الشباب لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة.

* كاتب وصحافي من الاردن